ملامحُ الشعرِ الاجتماعيِّ والإصلاحيِّ الأديب "حمزة بكوشة"

الدكتورة : مليكة بن قومار
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب واللغات ـ جامعة غرداية
malikabenkoumar47@gmail.com

ملخص:

يعتبر الأدب والشعر فن القول والكتابة في التعبير عن المشاعر الإنسانية في إطار فن الكلام الجميل والمؤثر، فالكلمة البليغة الصادقة تنفذ إلى أعماق النفس فتهز الوجدان، وخاصة إذا وجدت في بلد كالجزائر الذي ساير أحداث نضالية وبطولية كبيرة، فقد تقلد الشعر مسؤولية إيقاظ النفوس. وتعد المرحلة الأدبية الحديثة من أهم المراحل التي مر بها الأدب الجزائري عامة الشعر خاصة والتي يمكن تحديدها تقريبا من 1925 م إلى 1962م من أهم المراحل الحاسمة في النهضة الجزائرية الأدبية، إذ نبغ هذه الفترة شعراء كثيرون، وأحسنوا الأداء الشعري، ولعلّ ذلك راجع للواقع المعاش في الجزائر، إبان الفترة الاستعمارية والذي فُرض عليهم النظم لتوعية الشعب الجزائري وحثّه على الكفاح والنضال، والتنبيه بخطر المستعمر ومجازره ومقاصد ومخلفاته، ومن بين هؤلاء الشعراء والأدباء الذين سايروا هذه المرحلة، الأديب الشيخ"حمزة بكوشة"، والذي بدوره يُعدُّ رائدا من رواد الحركة الشعرية والنقدية في الجنوب الجزائر، وفكان السبب في اختيارنا لهذا الموضوع، محاولين من خلاله تسليط الضوء على بعض القصائد التي تحمل بُعداً إصلاحيا واجتماعيا في ديوانه.

Summary:

Literature and poetry are the art of saying and writing in expressing human feelings within the framework of the beautiful

and influential art of speech. The eloquent and sincere word penetrates to the depths of the soul and shakes the conscience, especially if it is found in a country like Algeria, which has been accompanied by great heroic and struggle events, poetry has assumed the responsibility of awakening souls.En conclusion, d'étude comprenait le point de vue des chercheures linguistiques de ces applications et des exercices d'évaluation et la comparaison des exercices contemporaine, mettant en évidence la pertinence du processus d'acquisition des apprenants.

The modern literary stage is one of the most important stages in Algerian literature in general, poetry in particular, which can be identified roughly from 1925 to 1962, one of the most crucial stages in the Algerian literary renaissance. In Algeria, during the colonial period, who imposed regulations on them to educate the Algerian people and urge them to struggle and struggle, And alerting the danger of the colonizer, its massacres, purposes and its remnants, and among these poets and writers who followed this stage, the writer Sheikh "Hamza Bakoucha", who in turn is considered a pioneer of the poetic and critical movement in southern Algeria, and was the reason for choosing this topic, trying through it to shed light On some poems that carry a reformist and social dimension in his poetry.

مقدمة:

إن الاهتمام بالأدب والمجتمع يمتد إلى فترة تسبق نشأة الشعر الاجتماعي والإصلاحي. والاهتمام بهما يعني إقامة الجسور بين كل من الأدب والمجتمع، على أن أول اهتمام حقيقي لهذه العلاقة ترجع للفيلسوف الفرنسي" **إيبوليت أدولف تين** Hippolyte Taine "الذي عاش في القرن 19م ، فقد نظر للأدب باعتباره انعكاسا للمجتمع، والبيئة الاجتماعية لها تأثيرها على الأدب، وجعله في مستوى ما يعانيه ضمير العصر.

وبذلك كانت الحركة الأدبية ذات صلة وثيقة بالوضع الوطني والاجتماعي للأمة الجزائرية، فقد كان الأديب دائما ضمير الأمة، وصدى همومها وآلامها وآمالها، ولسانها المعبر عن معاناتها وطموحها، يرصد جوانب الخير والشر فيها، فيبارك تلك عموما، ويعرض عن هذه ويدينها غالبا مبشرا بمثل العمل والمحبة والوفاء، داعيا إلى سعادة الإنسان وصون كرامته، وكرامة وطنه، معلنا عداءه لكل أشكال الظلم والقهر وكل أساليب المصادرة التي تتعرض لها حريته وحرية أبناء وطنه.

والواقع أن الشاعر مما يلهمه على أن يكرس أدبه للقيم الإنسانية، هو انزياحه من حدود نفسه إلى حدود المجتمع، ولعل من أبرز الشعراء الجزائريين الذين أبدعوا بشعرهم، وكان لشخصيتهم الأثر البارز في التعبير عن الحاجات الواقعية والاجتماعية وهو الشاعر والناقد الجزائري "حمزة شنوف" والمدعو ب"بكوشة"، ولهذا ارتأيت أن يكون موضوع مداخلتي موسوم ب" ملامح الشعر الاجتماعي والإصلاحي للأديب حمزة بكوشة "

وكان السبب وراء اختياري لهذا الشاعر ولهذا الموضوع هو اهتمام الشاعر بأعماق الأمة الفردية على أنها قضية اجتماعية وإصلاحية، وتجشمه عناء حمل أعباء الإصلاح والتوعية والتوجيه على عاتقه في وقت كانت الجزائر فيه تحت وطأة الاحتلال الفرنسي الغاشم، حين شرعت جذوة الحس الإصلاحي تتقد أكثر من ذي قبل في منتصف إلى أواخر فترة التسعينيات مما أشعل فتيل صراع فكري بين الفكر الوطني الإصلاحي القائم على العربية والإسلام والجزائر من جهة، وبين سياسة الاستعمار والفكر الموالي له من جهة أخرى.

وكذا الرغبة والميل في البحث على جهود بعض الأدباء من الجنوب الجزائري وإسهاماتهم الأدبية والثقافية، ونظرا لعلاقة التأثير والتأثر بين الشعر والمجتمع، اخترت بعض المقاطع من قصائد الأديب"حمزة بكوشة" حول هذا الموضوع.

والبداية تكون بتقديم نبذة عن حياة هذا الأديب

1-نبذة عن حياة "حمزة بكوشة":

ولد الشيخ "حمزة شنوف" المدعو "بكوشة" بداية القرن الماضي خلال سنة 1909م بمنطقة وادي سوف، كان والده تاجراً جوالاً، فانتقل به إلى عاصمة الزيبان بسكرة وعمره حوالي خمس سنوات، ورغم اهتمام والده بالتجارة كوسيلة من وسائل اكتساب الرزق إلاَّ أنَّه كان مُحباً للعلم والعلماء لذلك حرص على تنشئة ابنه على مائدة القرآن، والعلوم التي أخذها بداية عن بعض علماء وفقهاء الزيبان بسكرة أبرزهم: الشيخ "إبراهيم بن عامر" وهو الذي أوصاه بالسفر إلى ديار الزيتونة بتونس، كما جالس الشيخ "الطاهر بن العبيدي" و"الشيخ محمد بن الجديدي"[1]، وغيرهم من الشيوخ.

ولما بلغ الشاعر "حمزة بكوشة" السابعة عشر من عمره توّجه إلى تونس لتلقي العلم في جامع "الزيتونة"، وتخرج منها في سنة 1930م بشهادة التطويع، ثم عاد إلى الجزائر مترددا بين الوادي وبسكرة.....ومما أثر في عقله ونفسه هو تعرفه سنة 1927م في مدينة بسكرة، على الشيخ "الطيب العقبي" الذي كان يقود من هناك معركة ضد الجمود والبدع والخرافات التي كان يحرسها – باسم الدين – أناس يجهلون حقيقة الكتاب المنزل والإيمان بالله وبالرسالة النبوية [2].

كما ساهم الشيخ "حمزة بكوشة" في التعليم العربي الحر بالوادي وبمؤسسات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خاصة معهد" بن باديس" وكان له نشاط صحفي حيث نشر بجريدة البصائر ، كما أرسلته الجمعية لتعليم أبناء الجالية الجزائرية بفرنسا وهو يعد من أعلام الجزائر الكبار في مجال النقد السياسي والأدبي، الذين كان لهم دورهم البارز في نهضة المنطقة خصوصا والجزائر عموما[3].

لقد كان الشيخ "حمزة بكوشة" من بين الشيوخ الذين كانوا يشجعون الطلاب على الهجرة إلى تونس، للدراسة بجامع الزيتونة، رغم محاولات الاستعمار

التظاهر بمظهر التسامح والتودد للأهالي انطلاقا من فتح المدرسة الأهلية الفرنسية بالوادي، لكن موقفه كان دوما مرتبطا بهاجس الخوف من التنصير والتمسيح، فقد كان موقفه صريحا من ذلك حيث، يقول: « وقد كنا نفر من قراءة الفرنسية فرار السليم من الأجرب، لأننا وجدنا أن قراءة الفرنسية طريق إلى الكفر إن لم يكن الكفر عينه» [4].

شغل بعد الاستقلال مناصب عدة: بوزارة الأوقاف، وبسلكي التدريس والقضاء. من آثاره: ديوان شعرٍ بعنوان «خواطر الصبا والشباب والكهولة والمشيب»، وكتاب «ما رأيت وما رويت»، بالإضافة إلى مئات المقالات وعشرات المحاضرات، وله عدة أعمال أخرى ما زالت في عالم المخطوط مثل:

-مخطوط "الشيخ الهاشمي الشريف وانتفاضته بوادي سوف".

-مخطوط "من أقطاب السلفية في المغرب العربي- الشيخ عبدالحميد بن باديس".

-مخطوطات تراجم لبعض أصدقائه، "كالشيخ مبارك الميلي ومحمد الأمين العمودي".

كان الشيخ "حمزة بكوشة" مقرّبا كثيرا من الإمام "ابن باديس" وقد أوصى به خيرا بقوله:« ..أنبهكم إلى ما يجب من العناية بالشيخ "حمزة بكوشة" فليس مثله ممن يتهاون به، إن شكو من قلّة الرجال ثم نتغافل عن مثله؟»[5]

وبعد حياة مكللة بالجد والاجتهاد وحب الوطن، انتقل إلى جوار ربه يوم الأربعاء14 جمادى الثانية 1415هـ الموافق لـ 16 نوفمبر 1994م وعمره 84 سنة وقد شيعت جنازته بمقبرة القطار بالعاصمة فرحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

2-شعـــره:

الشيخ "حمزة بكوشة" أديب ساخر، وناقد ماكر، جريء في أدبه جريء في آرائه، تحمل نفسه ثورة اندفاعية ولكنها متزنة، أثقلت جوانبها الحكمة والعقل، قليل الكلام، كثير التفكير.. مقلّ الإنتاج ولكنه مجيد.(6)

كما كتب الشيخ"حمزة بكوشة" في مجالات النقد السياسي وكذا النقد الأدبي والقصيدة الشعرية البليغة وله ديوان «خواطر الصبا والشباب والكهولة والمشيب» سجل فيه خواطره وكما أن له قصائد إخوانية تتسم بالطول وقصائد وصفية قصيرة قد تصل إلى بيتين فقط كالتي يصف فيها حالة الأديب في قوله:

إذَا لَم تُحارِبكَ هَذهِ الحَياةُ فَلستَ إذنْ مِن رجالِ الأدَبِ
فَصبرًا وصَبرًا عَلى النَّائِباتِ فَلَا بد يومًا تَزولُ الكُربُ(7)

فالشاعر في هذه الأبيات يدعو الأديب إلى التحلي بصفة الصبر، التي تغنى بها الشعراء قديما وحديثا وذكّروا بعظيم أثره على النفس، فهو السلوان في أوقات الحزن، وهو الأمل وسط ظلمات اليأس، والتحدي سيرة حياة لمن أراد الانتصار على عجزه وتحقيق آماله، لأن الأديب نموذج يحتذى ويضرب به المثل في الصبر والمثابرة وقوة الإرادة والتحدي ليتحول من عاجز كفيف إلى معجزة يدرسها التاريخ.

فبعد مرور عشرات السنين على رحيل الكثير من الشعراء والأدباء منهم الشيخ"حمزة بكوشة" لا يزال اسمه يتردد في الجامعات والندوات الثقافية وفى مؤتمرات اليونسكو والمحافل الدولية، ولا تزال كتبه يعاد طبعها وتلقى الإقبال من الأجيال الجديدة, وبحكم ثقافته وتجاربه الكثيرة بالمواقف الصعبة ومكائد الكارهين وتفوقه عليها، صار متفردا عن غيره، وبلغت شهرته مكانة كبيرة إلى أصبح واحدا من عظماء أمته.

لقد أشفق الشيخ"حمزة بكوشة" على الأوضاع المتردية التي يعيشها المجتمع الجزائري في ظل الجهل والتخلف، وإتباع الدجالين من شيوخ الطرقية الذين انحرفوا عن حقيقة الدين وجوهره، كما أشفق لحال الفقراء، وأنْبَ الأغنياء

البخلاء الذين انغمسوا في الملذات والملاهي، وانصرفوا عن الإحسان إلى المحتاجين من بني وطنهم، ودعا إلى طلب العلم وبناء المدارس والاقتداء بالسلف الصالح وذلك هو نهج علماء الإصلاح، ومن القصائد التي تسير في هذا السياق قصيدة "إلى بني وطني الأعزاء" و قصيدة "هل في الجزائر من يرق لحالها"، " شمس الهداية"

(التي نظمها بمناسبة زيارة الشيخ" الطيب العقبي" على رأس وفد جمعية العلماء إلى مدرسة الإصلاح بدلس التي كان يشتغل بها الشاعر)، ومنه مقطوعة بعنوان "الانحراف الديني":

بَرمتَ منَ الإقامَةِ في بِلادٍ يَؤُولُ أهلهَا الكُفرَ الصَريحَا
يقُودهُم المُدجلُ للزَوايَا ويَأخذُ مِنهمُ الثَّمنَ الرَّبيحَا
ليُعطيهم مِنَ الجَنَّاتِ قَصرًا وَيَمنعُهم إذَا قَـــدَر أتِيحَـا
ونَافسهُم مِن العُلماءِ قَومٌ تَركُ الدِّينَ، ويَشرونَ المَديحَا
ويَخشَونَ اليَهُود مَع النَّصَارَى وَلَا يَخشونَ مِن خَلقِ المَسِيحَا[8]

وقد سجل الشاعر كذلك محنة الشيخ المعلم الأستاذ "البشير الإبراهيمي" مع الرئيس "أحمد بن بلة" شهر أفريل 1964م، ووقوف الشيخ "عبد الرحمن شيبان" مع رفيق دربه "الإبراهيمي" وقفة وفاء في قصيدة يقول فيها:

فتحَ به الدّين و الفصحى قد ارتفعَ فوق السِّماكِ وقيل القوم قد هانُوا
كانوا الجزاء لمن وفـوا بعهدهمُ إن الوفـاء لدين الله قـربانُ
ففي الفداء لهم ذكرى وموعظةٌ و في المسَاجد تذكير و قـرآنٌ
فهم رصيدُ كانت بِه جزائرنـَا رغم الزوابع لم يضعف لهـا شأنٌ
إن أنس فلن أنس شيبان ومكرمةٌ مَشت بها في بِلاد الله ركبانُ
تُنكر القَوم للأستـاذِ عن كثبٍ فقـام ينصُرهُ في البعـد شيبانُ
شِيبان دامَتْ مساعِيكُم مكملةٌ لَا يَعترِيها مَدى الأزمَان نُقصانُ
إنَّ ابن بَاديسَ في الجِنانِ يَذكرُكُم لموقِفٍ كان فيه العِزُّ و الشَّأنُ[9]

فالشيخ من خلال قصيدته هذه يصف محبته ووفاءه لأصدقائه وتضامنه معهم في محنهم، وهاتين الصفتين لا تجتمعان إلا في الإنسان الصالح، وهذا

دليل على أن الشيخ لديه العديد من الصفات الحسنة الأخرى، لأن الوفاء ليس بشعور ولا بالألفاظ فقط، وإنما هو بالتصرف في المواقف المختلفة أما الحب فهو أسمى شعور يمكن أن يشعر به المرء في حياته، فإذا شعر الإنسان أن كل ما يحيط به يحبه سوف يزيد ذلك من حبه للحياة والرغبة في الاستمرار بها.

كما ورد في ديوانه خمس قصائد في الرثاء عنوان الأولى" سقى الوابل الوسمي قبر ابن عامر"، بناها الشاعر على قافيتين" اللام والعين"، نشرتها جريدة" النجاح "بتاريخ 5 أوت 1932 م، وقصيدة في رثاء"إبراهيم بن عامر"، وهو من شيوخ وادي سوف ومن أساتذة الشاعر.

وقصيدة" عبرة في مماته وعظات" في رثاء الأمير" خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري" وقد نشرتها جريدة" البصائر "عدد 7 ،بتاريخ 7 فيفري 1936م، وقصيدة" إمام المصلحين" في رثاء الشيخ" محمد البشير الإبراهيمي"في سنة 1965 م، وقصيدة" أبكي الصديق الصادق" في رثاء "الصديق السعدي "عام 1970 م، وهو زميل الشاعر في الزيتونة، وأول رئيس للمجلس الإسلامي الأعلى بعد الاستقلال، والشاعر كان حين يرثي هؤلاء العلماء يبكي فيهم العلم والجزائر لأنها كانت في أمس الحاجة إليهم.

أما في رثاء الأقارب فله مقطوعة من ثلاثة أبيات في رثاء ابنه" البشير" الذي كان أستاذا في التعليم الثانوي، عنوانها" ولدي البشير " نظمها بتاريخ 2نوفمبر 1972 م، ولئن كان مقتضبا في رثاء ابنه، فإنه رثى والده الذي توفي، حين كان الشيخ وقتئذ "بدلس" يدير مدرسة الإصلاح ولم يحضر جنازته، وبعد ذلك نظم قصيدة في ذكراه من ثمانية عشر بيتا عنوانها" دمعة حرة على الوالد"نشرتها جريدة" الوزير "التونسية بتاريخ 17 ماي 1934 م ومنها يقول:

الحَولُ حالَ، ونارُ الحُزنِ تسْتعِرُ والقَلبُ كادَ من الأهوالِ يَنفَطِرُ
وَكيف يطفئ ما قدْ حلَّ مِن ألمٍ ثَلجُ الشِّتاءِ وهوجُ الرِّيحِ والمطرِ
عَلمْتنِي كيف لا أعْنو لمشيخةٍ تُحارب الدِّينَ بالعادَات تستترُ..

عَلمتنِي كيف لَا أعْنُو لمشيخة تَظنُّ أنَّ الوَرى من دُونهَا بَقرُ
تَمتَصُ مِنهَا لُبانًا وَهي سَائِمةٌ إنَّ لم تَجد لَبنًا فَالجلدُ والشَعرُ

وكان الشاعر يشيد بفضل والده في حسن تنشئته لمحاربة الانحراف الديني والطرقيين الذين أسسوا" جمعية علماء السنة "من أجل محاربة الدين باسم الدين.[10]

للشاعر قصيدة من الشعر الحر، نشرتها جريدة" الوزير "سنة 1933 م عنوانها" بين سكان القبور "فيها زهد وانصراف عن الدنيا وهمومها، لكن اللافت للنظر أن الشاعر نظمها في هذا الوقت المتقدم على قوافي متنوعة في ثنائيات من الأبيات تشبه في ذلك المحاولات التجديدية في موسيقى القصيدة التي عرفت عند المشارقة وعند" الشابي" و"رمضان حمود" في هذا العهد يقول فيها:

وَدعِ العيشَ وهَاجرْ بينَ سُكانِ القُبورِ
إنَّمَا العَيشَ مَرائِرُ وظَلامُ بَعد نُورِ
إنَّما العَيشُ كبَحرِ وبِه المَرءُ سَفينُ
بَينَ أمَواجٍ وصخرٍ بَين حِيتانٍ وطينٍ
كَم بهِ ثَكلَى تَنُوحُ بدمُوعٍ جَارياتٍ
ويَتيمٌ ذُو قُروحٍ حَطمتْهَا النَّائِباتُ

وقد سجل الشاعر كذلك من خلال مقالة له عنوانها" من شعر" محمد العيد" الذي لم ينشر في ديوانه"، قصيدتين الأولى في الغزل نشرتها جريدة" صدى الصحراء" العدد8، عام1926 م، تحت إمضاء بكلمة" متغزل"، وهذا ينبئ بأن شعراء الإصلاح عموما ومنهم محمد العيد كانوا يتورعون عن شعر

الغزل ويبتعدون عنه لأنه لا يسير مع النهج الإصلاحي، والقصيدة الثانية عنوانها "غزالة تحنو على غزال "نشرتها جريدة" النجاح " العدد 555 سنة 1928م.

كما ورد في الديوان قصيدة لشاعر الإصلاح الشيخ" أحمد سحنون " سنة 1983م، عنوانها" من آثار موت الأحبة" في رثاء" عباس التركي" صديق الشاعرين معا[11].

خاتمة:

وفي ختام هذه المداخلة نستنتج أن الشاعر "حمزة بكوشة" هو أحد الشعراء الجزائريين الذين منحوا الشعر عطاء خاصّا، فجاءت قصائده مرآة عاكسة، لواقع المجتمع الجزائري، ووسيلته في ذلك عاطفته الصادقة التي ساقها بلغة قوية وأسلوب راق، فكانت أن فاضت نفسه حسرة وغيرة على وطنه، وسال قلمه كثيرا معالجا وناقدا في شتى المجالات، وبخاصة تلك التي مست قلب الأمة الجزائرية في كرامتها وعزتها ولغتها ودينها، فكانت آثاره إبداعا خالدا له أثره إلى يومنا هذا، ويرجع الفضل في ذلك إلى إحساسه بالمسؤولية الذي كان له الأثر الفعال في إبداعاته الشعرية والنثرية والنقدية التي اتسمت بالعفوية والواقعية، إذن فالشيخ "حمزة بكوشة" عالم مصلح قبل أن يكون أديبا وناقدا متفرغا للأدب، وفي الأخير نتمنى أن تكون هذه المحاولة البحثية -رغم قلة المراجع حول هذه الشخصية المصلحة- أن تعطي ولو صورة مختصرة لبعض القضايا الإصلاحية والاجتماعية التي طرحها الشاعر "بكوشة "في شعره.

المراجع:

1- يُنظر:الشيخ حمزة شنوف المعروف بحمزة بوكوشة العالم الصحفي المميز 1994-1909م، دار الثقافة مفدي زكريا

http://mculture-ouargla.com/index.php?option=com_content&view

=article&id=549

2-ينظر: محمد الهادي الحسني، من خواطر حمزة، موقع الشروق، 13نوفمبر 2021م الموافق ل 07 ربيع الآخر 1443هـ، www.echoroukonline.com

3-ينظر: يوسف زغوان، التعليم العربي الحر بوادي سوف(1931-1962م)، من خلال الوثائق المحلية والروايات الشفوية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير تخصص التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم إنسانية، شعبة تاريخ، جامعة حمه لخضر-بسكرة، ص41.

4-ينظر: غنابزية علي، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13 ه/-19م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر،2001 /2002، ص156.

5- ينظر: عيسى عمراني، ابن باديس يقرّر إعلان الثورة، البصائر، الاثنين 16 ربيع الأول 1442ه 2-11-2020م، https://elbassair.dz/

6- ينظر: محمد الهادي الحسني، من خواطر حمزة، موقع الشروق، مرجع سابق.

7-ينظر: إبراهيم بن ساسي، دور علماء الجنوب الجزائري في خدمة العلم والأدب من خلال معاهد الزيتونة، مجلة الأثر، ص05.

8-حكيم سليماني، الشيخ حمزة بكوشة وديوانه" خواطر من الصبا والشباب والكهولة والمشيب"، مجلة حوليات الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف-المسيلة، 2019/11/13ن ص185.186.

9 - يُنظر:الشيخ حمزة شنوف المعروف بحمزة بوكوشة العالم الصحفي المميز 1994-1909م، مرجع سابق.

10- حكيم سليماني، الشيخ حمزة بكوشة وديوانه" خواطر من الصبا والشباب والكهولة والمشيب"، مرجع سابق، ص188.189.

11 -ينظر: حكيم سليماني، الشيخ حمزة بكوشة وديوانه" خواطر من الصبا والشباب والكهولة والمشيب"، مرجع سابق ص191.